دراسةُ ضميرِ الغيبةِ والتكلم في القرآن الكريم وإبلاغيةِ الالتفات منهما إلى الله ـ

An Investigation of the third and first Person Pronouns in the Holy Quran

مجيد محمدي بايزيدي

د. علي رضا محمدرضايي

By: Majeed Muhamadi Bayaziy and
Dr.Ali Ridha Muhammad Ridhai

ملخص البحث

كانَ القرآنُ - منذ القديم - محور اهتمام الدارسين والباحثين، فحاول كلّ منهم أن يكشف وجهاً يسيراً عن إعجازه من خلال تدبّره في معانيه وألفاظه. من إحدى هذه المسائل مسألة الضمير التي شغلت أذهان الباحثين. وهذه الدراسة تبحث عن أسرار استعمال أنواع الضمير وبخاصة ضمير المتكلم للجمع - وهو أكثر الضمائر جدلاً- بالنسبة إلى الله تعالى. فإنّه -تعالى- يذكر نفسه تارة بصيغة المفرد مضمراً أو مظهراً وتارة بصيغة الجمع من دون التثنية.والمستنبط أنّ في استعمال الضمير أسرارا لم تتبيّن بعد، وأنّ استعمال ضمير الجمع ليس مبنيّاً على ما يستحقّه -تعالى- من العظمة لكثرة أسمائه وصفاته وكثرة جنوده وملائكته فحسب، بل وراء استعماله تكمن أسرار ورموز أخرى كوجود الوسائط، وبيان زيادة التفضل والإحسان ومسألة البروز وأنّ صيغة الإفراد مظهراً أو مضمراً تدلّ على العظمة وإثارة الخوف والمهابة فضلاً عن دلالته على القرب والإيناس والتلطف. وكلّ هذه المعاني قد جاءت بحسب سياق الآيات وأجوائها ومقامها بحيث إنّ سياق بعض الآيات ومقامها يتطلب استعمال ضمير الجمع في حين يقتضي بعضها استعمال غيره.

كلمات مفتاحية: الضمائر، ضمير المتكلم للإفراد وللجمع، الآيات المتشابهة، الالتفات

Abstract

The Quran has been the central interest of scholars, and researchers. Everyone has tried to reveal part of its miraculous nature by pondering over its meanings and language. One of the issues is the topic of pronoun that has occupied the minds of researchers. The present study attempts to look for the secrets of the types of pronouns , in particular the first person plural pronoun - a more arguable pronoun . For example , we find that Allah (SWT) refers to Himself in certain occasions with the implied or explicit singular pronoun while in other occasions , He uses the plural without the dual .We can say that the use of pronouns has a lot of unknown secrets.In addition, the use of the plural pronoun is not based on what His greatness deserves not only because He has many names, attributes , soldiers and angels, but also there are , of course, hidden purposes and symbols that stand behind His use. The implied or explicit pronoun suggests greatness and create fear and reverence , besides closeness ,cordiality and mercy . These meanings are achieved through the context of the verses because the context of some verses requires the use of plural pronoun while other contexts require the use of others.

اهتمّ النحاة بدراسة الضمير كاهتمامهم بالموضوعات النحوية والصرفية الأخرى، إذ شغل حيّزاً واسعاً في دراساتهم، فتناولوا فيها ماهية الضمير، وأقسامه، وعلّة بنائه إلى غير ذلك من القضايا التي تتعلّق بالضمير نفسه. ولم يغفل البلاغيون دراسته في مسألة تعريف المسند ¬إليه بالإضمار. ولكن هذه الدراسات توقّفت عند دراسة أغراض إتيان المسند ¬إليه بالضمير كمقام التكلّم والخطاب والغياب دون أن تتجاوز هذه الحدود إلى دقائق العدول عن هذه المقامات وأسرارها.

ولم يبادر الدارسون ببيان الطاقات التعبيرية التي تكمن وراء هذه الألفاظ، وحاولت الدراسات اللغوية المعاصرة أن تخطو بعض الخطوات نحو ذلك.

ومن أهمّ المسائل المتعلّقة بالضمير الذي يكاد أن يكون مهملاً أو شبه مهمل في الدراسات القرآنية مسألة استعمال أنواع الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى.

هناك ثلاثة أساليب - بحسب أنواع الضمير- قد¬¬ استعملها الله عند التعبير عن ذاته. فهو مرّة يحكي بضمير الغيبة، أو الاسم الظاهر الذي يعادله، ومرّة يعبّر عن نفسه بضمير المتكلّم للإفراد، وأخيراً يذكر نفسه بضمير المتكلّم للجمع، وهو أكثر الضمائر جدلاً؛ لأنّه يدلّ على التعدّد وذلك يخالف عقيدة التوحيد.

إنّ هذه الدراسة قد تولّت أن تكشف عن بعض أسرار استعمال هذه الأساليب. فهي تحاول الإجابة عن بعض الأسئلة، منها:

- ما أسرار استعمال كل من هذه الضمائر الثلاثة؟
- لماذا تتفاوت الضمائر في الآيات المتشابهة؟

خلفية البحث:

إنّ الدارسين لم يغفلوا جانب الضمير في دراساتهم القرآنية التي تهدف إلى إثبات أنّ الخطاب القرآني يختلف عن الخطاب البشري، ولكن أكثر هذه الدراسات تتعلّق بدراسة مرجع الضمير. منها:

- « محمد أحمد خضير « في بحثه « دور السياق في تقدير مرجع الضمير في الدراسات اللغوية والقرآنية »، مجلّةعلوم اللغة، القاهرة، المجلد الثاني، ١٩٩٩م، العدد الأوّل، قد حاول الكشف عن مرجع الضمير في القرآن الكريم وعلاقة ذلك بالسياقين اللغوي وغير اللغوي في الدراسات اللغوية والقرآنية.
- «علي علي لقم»في بحثه «فيما يحتمله الضمير من المرجع في لغة العرب في ضوء شواهد من القرآن والسنة»، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية،١٤١٠ه.ق،العدد الثامن، توقف عند مجموعة من الضمائر ولها أكثر من مرجع في الكتاب والسنة.
- «صالح ناصر الناصر « في مقال عنوانه « من أسباب اختلاف المفسّرين المتعلّقة بمرجع الضمير »، مجلة الحكمة، محرم ١٤٢٨ه.ق، العدد ٣٤، قد تناول ما يتعلّق ببعض أسباب هذا الاختلاف.
- « لزهر وزاين « في رسالته المعنونة بـ « ضمير الغائب ومرجعه في القرآن الكريم » بجامعة منتوري الجزائر بإشراف فرحات معمري، ٢٠٠٨م، يحاول الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلّقة باستعمال ضمير الغائب ومرجعه في القرآن استعمالاً بديعاً يسمح بتوليد معان عدّة في آية واحدة فهل يتمّكن المترجم

من الحفاظ على كل هذه المعاني ونقلها إلى اللغات الأخرى؟

- «مهين حاجي زاده» في مقالة عنوانها «المطابقة بين الضمير ومرجعه في القرآن كريم» بمجلة آفاق الحضارة الإسلامية، السنة الثالثة عشرة،خريف وشتاء١٤٣١ق، العدد الثاني، قد تحدّثت عن قواعد مطابقة الضمير لمرجعه وذكرت أمثلة المطابقة في القرآن الكريم، ثمّ ذكرت الآيات التي ظاهرها المخالفة، فبيّنت آراء العلماء فيها مع ترجيح بعض الأقوال على بعض وسبب ذلك.

- « كاظم إبراهيم كاظم « في مقاله « الضمير العائد في القرآن الكريم » مجلة المعارج، صيف ١٤١٢ه.ق، المجلّد الأوّل، العدد التاسع، قد انصبّ اهتمامه على بيان ما جاز أن يعود عليه الضمير دون الخوض في الجوانب التفسيرية للنص القرآني.

- «إبراهيم عبد الحميد التلب» في مقاله المعنون بـ « الضمير المنفصل في النظم القرآني »،كلية اللغة العربية بالقاهرة،١٤٢٠ ه.ق، العدد الثامن عشر، قد بحث عن المواضع التي يرد فيها ضمير الفصل كثيراً.

- «ابن السائح الأخضر» في «سيميائية الضمير «أنا» في الدلالات وبناء التأويل » جامعة عمّار ثليجي، الجزائر في الثلاثاء، ٢مارس ٢٠١٠م، قام بدراسة ضمير «أنا» مركّزاً على ماهيته وصفاته وإظهاره كعلامات سيميائية تسمح ببناء التأويل.

ضرورة البحث:

إنّ ضرورة هذا البحث ترجع إلى استعمال ضمير المتكلم للجمع بالنسبة إلى الله؛ لأنّه يدلّ على التعدّد، مع أنّ أوّل ما حاول الأنبياء تصديقه من قبل الناس هو مسألة التوحيد. فاستعمال ضمير «نحن-نا» لله مع وحدانيته قد جعل بعض المنصّرين أن يدّعوا ألوهية المسيح عليه السلام، فهم يقولون: لو كان الله واحداً ماقال إلّا: فعلتُ وقضيت وأمرت وخلقت [١].

لاشكّ في بطلان ما ادّعى المنصّرون، ولكن علينا البحث عمّا يؤيد خروج ضمائر الجمع عن ظاهر الجمع إلى غيره ولاسيّما الإفراد.

استعمال ضمير المتكلم للجمع في اللغة العربية:

إنّ استعمال ضمير المتكلم للجمع للدلالة على الإفراد أسلوب سائغ في اللغة العربية كما يقول ابن قتيبة: «ومن خروج ضمير الجمع عن ظاهره إلى ما يخالف الظاهر أن يخاطب الواحد بلفظ الجمع كقوله سبحانه « قال ربّ ارجعون ... » [٢] وأكثر من يخاطب بهذا الملوكَ لأنّ مذهبهم أن يقولوا: نحن فعلنا. يقوله الواحد منهم، يعني نفسه فخوطبوا بمثل ألفاظهم [٣] .

ويؤيد ذلك ابن فارس في قوله:« ومن سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع. فيقال للرجل العظيم: انظروا في أمري. وكان بعض أصحابنا يقول:« إنّما يقال هذا لأنّ الرجل العظيم يقول: نحن فعلنا، فعلى هذا الابتداء خوطبوا في الجواب» [٤] .

والمستنبط هو أنّ هذا الأسلوب كان جارياً على لسان العرب فهو معهود غير مستغرب ويعدّ من أساليب التعظيم. ولكن هناك رموز أخرى تكشف اللثام عن وجهها عند دراسة الآيات.

مما يجدر ذكره أنّ الله قد ذكر نفسه بصيغة الجمع

ولكنّه لم يخبر أحدٌ عن الله ولم يخاطبه بصيغة الجمع، بل استعمل مايدلّ على المفرد إلّا في موضع واحد وهو: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (٥) وهناك تفاسير مختلفة قد حاولت تسوّغ استعمال ضمير الواو في مخاطبة الله تعالى في هذه الآية من دون حملها على وجه التعظيم، منها:

*أنّ الواو يرجع إلى الملائكة والكلام على تقدير مضاف أي يا ملائكة ربي ارجعوني، وجوّز أن يكون « رَبّ » استغاثة به تعالى و«ارجعوني » خطاب للملائكة عليهم السلام.

*جمع الضمير يدلّ على التكرار فكأنّه قال: ربّ ارجعني ارجعني ارجعني، ومثل ذلك تثنية الضمير في قفا نبكِ ونحوه (٦) .

*إنّ العلامة الطباطبائي يعدّ «ارجعون» خطاباً للملائكة المتصدّين لقبض روحه و«ربِّ» استغاثة معترضة بحذف حرف النداء والمعنى قال -وهو يستغيث بربه -ارجعون. ولا¬يرضى بما قدّمها الآخرون تجاه اعتبار حرف الواو لله أو دلالة على تكرار الفعل فيقول: وفي الوجهين أن الجمع للتعظيم - إن صحَّ ثبوته في اللغة العربية - فهو شاذ لايحمل عليه كلامه تعالى، وأشذُّ منه جمع الفعل بالمعنى الذي ذكر (٧).

لكن الآلوسي يعدّ الواو لله تعالى ويحمله على وجه تعظيم المخاطب مستشهداً ببعض أشعار العرب، منها:

إنّ الواو لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى كما في قوله:

ألا فَارحَمُوني يا إلٰهَ مُحمّدٍ
فَإن لم أكُـن أَهـــلاً فَأنتَ لـــهُ
اهل
أهـلُأهـلُ
وإن شِئتُ حَرَّمتُ النساءَ سَواكُمُ
وإن شئتُ لم أطعَم نُقاخاً ولا بردا
ولابردا ولابردا ولا بَرداً

ثمّ يستنتج قائلاً: « والحق أن التعظيم يكون في ضمير المتكلم والمخاطب بل والغائب والاسم الظاهر » (٨) .وذلك ما نجده عند الدعاء حيث في موضوع الدعاء قد استعمل ضمير المتكلم للإفراد ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٩) ولكن بالنسبة إلى دعاء الإنسان إيّاه في موقع الشدة والضيق قد استعمل ضمير «نا» ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١٠) ونرى أنّ هذا الإنسان يدعو الله في كل من الأحوال بحيث إنّه لم يدَع حالة إلّا وقد لجأ إلى الدعاء.

أسرار الضمائر المتعلقة بالله تعالى ورموزها:

التعظيم والفخامة ووجه جمع الضمير:

فقد صرّح جميع الباحثين أنّ ضمير المتكلم للجمع بالنسبة إلى الله يدلّ على العظمة والفخامة، شأنه شأن ملك ذي شوكة وكبرياء.

فهناك كثير من الآيات القرانية يمكن حمل ضمير

الجمع عليها. نتطرق إلى آيتين قد تعاضد فيهما اللفظ والمعنى للدلالة على العظمة والفخامة. ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (١١) إنّ هذه الآية تتحدّث عن فتح مكة أو الحديبية -على اختلاف التفاسير- وهما كانا من أعظم النعم التي أنعمها الله على المسلمين. فاجتمع في الآية كلّ شيء لبيان هذه العظمة. فإنّه -تعالى- أسند الفتح و هو فعل الرسول مجازاً إلى نون العظمة تفخيماً لشأنه وشأن الرسول و الفتح. (١٢) وممّا زاد في معنى الشموخ والفخامة هي كثرة استعمال «ألف» في المفردات إنّا-فتحنا-فتحا-مبينا. وكذلك استعمال الفعل ماضياً على عادة ربّ العزة سبحانه في أخباره؛ لأنها في تحققها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخْبِر ما لايخفى (١٣) .وحذف مفعولَ «فتحنا» لأنّ المقصود الإعلام بجنس الفتح لابالمفتوح الخاص(١٤).

ولكن في الأية الثانية ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّـهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ تغيّر أسلوب الإسناد حيث أسند فعل المغفرة إلى الاسم الظاهر. يمكن أن يكون في إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أنّ المغفرة ما يتولاها سبحانه بذاته وأنّ الفتح مما يتولّاه جلّ شأنه بالوسائط، وقد صرّح بعضهم بأن عادة العظماء أن يعبروا عن أنفسهم بصيغة المتكلم مع الغير لأنّ ما يصدر عنهم في الأكثر باستعمال توابعهم (١٥).

أمّا الثانية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١٦) فقد تكرّر ضمير المتكلم للجمع أربع مرّات فيها و« إنّ » مرّتين واستعمل اسم الفاعل الذي يدل على الشموخ. فلا يخفى ما في صياغة الجملتين من كمال الكبرياء والجلالة وفخامة شأن التنزيل، فإنّ المؤمن يشعر بعظمة من أنزل القرآن من خلال كثرة هذا الضمير، ويتيقّن من عدم تحريف القرآن.

التعظيم والفخامة ووجه إفراد الضمير:

جدير بالذكر أنّ ضمير « الياء » أيضا يدلّ على التعظيم كما أنّ ضمير «نا» يؤدي ذلك. هذا ما يتبيّن مما قاله الآلوسي في تفسير ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾(١٧) .فهو يرى أنّ الإضافة للتعظيم فتدلّ على تخصيص العباد بالمخلصين كما وقع التصريح به في الآية الأخرى ولقرينة كون الله تعالى وكيلاً لهم يحميهم من شرّ الشيطان (١٨). فهؤلاء العباد يكتسبون العظمة والفخامة بسبب إضافتهم إلى ضمير الإفراد لأنّ الله خصّصهم إلى نفسه دون غيره.

مسألة التوحيد ووجه إفراد الضمير:

إنّه -تعالى- لم يستعمل عند مسألة التوحيد والعبادة ما يدلّ على الجمع بل استعمل ما يدلّ على وحدانيته وهو ضمير الإفراد. وفي كل القرآن يكون الأمر بالدعاء أو بالذكر أو بالعبادة أو التقوى أو الأمر بالخشية أو الخوف أو ابتغاء وجهه وابتغاء مرضاته بصيغة المفرد ولم يرد قطّ في القرآن بصيغة الجمع أو مشيراً إلى الجمع ذلك لأهمية هذه الأمور في التوحيد له. فقد استعان القرآن لدحض الشرك وإقامة الأدّلة على وحدانية الله بكلّ الوسائل الممكنة كاستعمال ضمير

الإفراد لأنّه مقام يقتضي التعبير بضمير المفرد دفعاً لما يوهمه ضمير الجمع من التعدّد.

منها: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ*وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَينَا رَاجِعُونَ﴾(١٩)

فإنّه تعالى لمّا أراد التعبير عن مسألة الربوبية والعبادة استعمل ضمير المتكلم للإفراد وغيّر ذلك في مسألة رجعة الإنسان إلى الله فاستعمل ضمير المتكلم للجمع. فنلاحظ في سورة طه أنّه تعالى يعبّر عن ذاته الربوبية بالمتكلم وحده، فيقول:﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾

في الآيات الثلاث السابقة نرى كمّاً غفيراً من ضمائر المتكلم للواحد، لكن الظاهرة الأخرى التي تلفت أنظار القراء هي كثرة المؤكّدات فلا شكّ أنها تؤدّي إلى زيادة تقرير المعنى وتثبيته في نفس المخاطب حتى يبلغ درجة اليقين. فلابدّ من هذا اليقين لتحمّل الرسالة من جانب موسى(ع). حيث نرى كثرة هذه المؤكّدات في موضعين يبيّنان ربوبيته وألوهيته.

ففي»إنّي أنا ربّك»نجد ضمير الفصل الذي يفيد قصر الخبر على اسم إنّ. فالربوبية مقصورة على ضمير المتكلم وقصر الربوبية على الله يؤدّي إلى قصر الألوهية عليه أيضاً؛ لأنّ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية فـ ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.

فتكرّر ضمير المتكلم للإفراد ثلاث مرّات في هذا الموضع. فبذلك أدحض ما أدعّى فرعون من « أنا ربّكم الأعلى » الذي تتجلّى فيه أنانيته باستعمال كلمة «الأعلى».

جدير بالذكر أنّ « ألف المدّ التي ينتهي بها الضمير «أنا» يترافق نطقها مع رفع الرأس المصاحب لحسّ الشموخ الذي يملأ وجدان الإنسان العربي الأوّل الذي أنتج اللغة ويتماشى مع رغبته في الاستعلاء على الآخر الذي ينتهي ضميره المخاطب بالتاء المكتومة التي لابدّ من تحريكها ليظهر صوتها فاستتبعت بالفتحة التي تساوي نصف ألف في «أنت» مما يعني إبقاء الآخر في حالة أدنى من حالة الأنا،.... فألف ضمير المتكلّم هو الصفة الأيقونية للذات المتكلمة، والمشابهة مع الموضوع في التعبير والمحتوى لأنّ «ألف المدّ» أصبحت علامة تمتلك نفس خصائص الموضوع الممثّل ... من هنا كان ضمير المتكلّم هو الأعلى بألفه، ويبقى ضمير المتكلم في اللغة العربية أعلى من بقية الضمائر الأخرى شكلا ومحتوى» (٢٠).

وأخيرا فكما تتبين من الآيات أنّ العبادة تختص بالله وحده، فلم يستعمل مفعول فعل العبادة بصورة الجمع في القرآن لأنّه يخالف التوحيد في العبادة، بل جاء بالضمير أو الاسم الظاهر الدالّ على الإفراد. ولكن بالنسبة إلى «العبد» و»العباد» نرى استعمالهما مضافين إلى ضمير المتكلم للإفراد مرّة وللجمع مرّة أخرى.

ومن أشهر هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢١)

إنّ في هذه الآية قد جمُع كم غفير من الإشارات إلى ترغيب العباد إلى طلب المغفرة وعدم القنوط من رحمته ولكنّنا نركّز على الضمير. فنرى أنه

تعالى استعمل ضمير «الياء» في «عبادي» ترغيباً لهم إلى استجابة الدعوة فذلك يسبّب التمسّك بذيل رحمته ومغفرته. وفي الآية التفات من التكلم إلى الغيبة حيث يقول:«إن الله يغفر»ولم يقل:إني أغفر وكأنه تعالى يقول لاتقنطوا من رحمتي فإني أنا الله أغفر الذنوب جميعاً لأن الله هو الغفور الرحيم [٢٢]. فيشعر العبد الذي أسرف على نفسه بنوع من الإستئناس لمّا يرى أنّ الله ناداه مضافاً إلى ضمير المتكلم لإفراد. فإنه عبد يختص به. وهناك أيضا كثير من الآيات التي أضيفت فيها لفظة «عبد» أو«عباد» إلى ضمير المتكلم للجمع وبخاصة عندما يذكر الأنبياء، من دون أن يخالف ذلك عقيدة التوحيد العبادي.

وفي آيات سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّـهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا عَلَىٰ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣)﴾ نشاهد أنّه تعالى يخصّص فعل العبادة إلى نفسه في قوله «اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ...» ولكنّه في الآيات التالية حيث يتحدّث عن القرآن والرسول يستعمل ضمير «نا» في «نَزَّلْنَا» و«عَبْدِنَا» فبهذا الضمير يشير إلى عظمة القرآن ورسوله. «وفي ذكره صلّى الله عليه واله وسلّم -بعنوان العبودية مع الإضافة إلى ضمير الجلالة - تنبيه على عظم قدره واختصاصه به وانقياده لأوامره، وفي ذلك غاية التشريف والتنويه بقدره صلّى الله عليه واله وسلّم وعدل سبحانه من الغائب إلى ضمير المتكلم تفخيماً للمنزل أو المنزل عليه لاسيما وقد أتى بـ «نا» المشعرة بالتعظيم التام وتفخيم الأمر رعاية لرفعة شأنه عليه الصلاة والسلام» [٢٣].

بناءً على هذا إن استعمال ضمير «نا» في كلمتي «عبد وعباد» عندما يتحدّث القرآن عن الأنبياء وعباد الله الصالحين يكون بياناً لعظمتهم وتفخيماً لشأنهم. فنستنتج مما سبق أنّ استعمال ضمير المتكلم للجمع لم يأتِ لبيان عظمة الله فحسب، بل جاء للتعبير عن عظمة الأنبياء وعباده الصالحين والكتب السماوية.

مقام التسبيح ووجه إفراد الضمير:

إنّ هذا المقام مرتبط بالتوحيد أشد الارتباط لأنّه -تعالى- قصد تنزيه نفسه عن كلّ ما يخدش ربوبيته وألوهيته. لذلك جاء التعبير عن الله في هذا المقام أيضاً بضمير الإفراد أو الاسم المظهر لبيان ما يختص به مما يليق بجلاله. ففي آية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [٢٤]

فإنّه تعالى لمّا أراد التصريح بتسبيحه، استعمل مايدلّ على الإفراد (الذي، أسرى، عبده) ولكنّه لجأ إلى الالتفات لما خرج من التسبيح وهو (باركنا، نريه، آياتنا). فالتسبيح والتنزيه لايختصان إلّا به، فما يدلّ على التعدد لايتلاءم وهذا المقام.

الإيناس والتلطف ووجه إفراد الضمير:

هناك ثلاث آيات خوطب بها موسى عند التعبير عن

وحدانية الله وألوهيته وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٢٥) و﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّـهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(٢٦) و﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّـهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢٧) .

استعمل ضمير المتكلم وحده غير أنه تعالى« جاء بضمير الشأن الدال على التعظيم في الأخيرة من دون غيرها. ثمّ جاء باسميه الكريمين «العزيز الحكيم» للزيادة في التعظيم» (٢٨) . ونلاحظ مقام التفخيم في الآية من السياق «أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ « فهو مسبوق بالتعظيم والتنزيه مما ناسب ضمير الشأن (٢٩) .

إنّ سرّ استعمال ضمير المتكلم للإفراد في الآيات يرجع من جهة إلى مقام التوحيد ومن جهة أخرى إلى الإيناس والتلطّف بالمخاطب وإزالة الخوف والإشعار بالقرب ومن ثمّ بالتكريم والتشريف.

ففي سورة طه يخاطب موسى(ع) ربّه للمرّة الأولى، فهو في حاجة ماسة إلى هذا الإيناس الذي يرفع عند المهابة وعند مفاجأة الفوارق. ولايخفى ما في لفظ ربّك من إيناس وتلطّف وتشريف لموسى عليه السلام. فإضافة لفظ «ربّ» إلى ضمير موسى فيه تشريف له عليه السلام (٣٠) . ومن جهة أخرى فقد فوجئ موسى(ع) بنداء الحق من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة التّي كلّمه الله فيها. فهذا موقف غريب يحتاج إلى ما يؤنس نفسه(ع) ويثبت قلبه فجاء التعبير بضمير «أنا» و«ي» الدالّ على الإيناس فتعاضدت فيه أنواع المؤكّدات لتقوية هذه المعاني. فيشعر المخاطب بالقرب من المتكلم فيحسّ بالأمن والإطمئنان.

جدير بالذكر أنّ معنى القرب الذي يستفاد من استعمال ضمير المتكلم للإفراد يزداد أكثر وضوحاً لمّا نقوم بالمقارنة بين المقام في السور الثلاث: القصص والنمل وطه.

ولما كان المقام في سورة القصص وطه مقام الخوف والخائف يحتاج إلى الأمن أمّنه الله قائلاً: ﴿... لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١)﴾ في القصص وفي طه: ﴿... لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾ لبعث الطمأنينة إليه في هذا الموقف العصيب.

أمّا في سورة النمل فالمقام مقام التكريم والتشريف، فقال: ﴿...لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾ فالمح بذلك إلى أنّه منهم وهذا تكريم وتشريف. وإنّ «لديّ» يشعر بالقرب وهو زيادة في التكريم والتشريف. فقال: «إنّي لا يَخافُ لَديّ المُرسَلونَ» ولم يقل: «إني لا يخاف مني المرسلون» لأنّ المرسلين لا يخافون بحضرته، ولكنهم يخشونه ويخافونه كل الخوف. يتّضح مما قال السامرائي أنّ قرب المقام قد تجلّى في حذف بعض الحروف لأنّه قصّر الامتداد الطولي للعبارة بحذف بعض الحروف والكلمات فهذا التقصير قد أدّى إلى التقريب. « فناداه بما يفيد القرب فقال « ياموسى» ولم يقل: « أن ياموسى » كما قال في القصص، ففصل بين المنادي والمنادى بما يفيد البعد. وأمره أيضا بما يفيدالقرب بلافاصل بينهما فقال: «ألق عصاك» ولم يقل:« أن ألق عصاك »

للدلالة على قرب المأمور منه. فناداه من قرب وأمره من قرب وذلك لأنّه كان منه قريباً » [٣١].

جدير بالذكر إنّ قوله: «وأَلْقِ عَصاك» قول مباشر من ربّ العزّة، وهو دالّ على التكريم. وأمّا قوله: «وأنْ أَلْقِ عَصاك» فإن معناه أنه ناداه بما تفسيره هذا أو بما معناه هذا. فأنت إذا قلت: «ناديته أن اذهب» كان المعنى ناديته بالذهاب. فقد يكون النداء بها اللفظ أو بغيره بخلاف قولك:«ناديته اذهب»، أي: قلت له اذهب. فقلت له هذا القول نصّا [٣٢]. فما ذكرنا يدلّ على أنّ المقام في النمل مقام تعظيم لله وتكريم لموسى.

مقام الخوف وفلسفة إفراد الضمير وجمعه:

هذا المقام من المقامات التي قد جاء الضمير فيه للإفراد مرة وأخرى للجمع. كما في الآيات الآتية:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٣٣] و﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾[٣٣] و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[٣٤]

إنّ هذه الآيات قدجاءت في مقام يشعر بالخوف. في آية سورة الأنفال إشارة إلى قصة بدر وهي أوّل غزوة في الإسلام وظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد انقضائها. نشاهد أنّ الله قد استعمل ضمير الغيبة والتكلّم لإزالة الخوف وإضفاء فضاء عاطفي لتثبيت القلوب إذ يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩)وَمَا جَعَلَهُ اللَّـهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّـهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ثم يوحي إلى الملائكة مستعملاً ضمير المتكلم للإفراد.

يتجلّى هذا السرّ أكثر وضوحاً عندما نقوم بمقارنة آيات طه مع ماجاء في سورة الشعراء. وأولّ ما يلفت الأنظار في هذه الآيات هو التغيير الذي نشاهده في صيغ الضمائر ومسألة إفراد الرسول وتثنيته.

يقول أحد الباحثين معتمداً على دور السياق في تغيير الضمائر:«إنّ تثنيتها في طه وإفرادها في الشعراء يرجع فيما نحسب إلى اختلاف السياق في كل من السورتين عنه في الأخرى. فكلّ من الآيتين الكريمتين قد سُبقت في سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه، غير أنّ هذا الإعلان قد ورد في سورة طه على لسان الرسولين ومن ثمّ جاءت لفظة رسول مثناة لبعث الطمأنينة والثقة في قلبيهما واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما معاً. أمّا في سورة الشعراء فقد ورد الإخبار عن الخوف من فرعون وآله على لسان موسى وحده،من ثمّ كان إفراد لفظة رسول في تلك السورة تهدئة لروعه وتطميناً لمخاوفه (ع)»[٣٥].

ولكن مايثير فضول القارئ حسب ما عبّر عنه حسن طبل هو استعمال ضمير التكلم بنوعيه في

هاتين السورتين. فإنّه تعالى قال في طه: «إنني معكما أسمع وأرى» فاستعمل ضمير المتكلم وحده بالنسبة إلى نفسه وضمير المخاطبين بالنسبة إلى موسى وهارون. ولكنّه تعالى غيّر الأسلوب في سورة الشعراء، فاستعمل مايدلّ على الجمع في كلا الموضعين فقال:إنّا معكم متسمعون، مع أنّه استعمل الفعل «قال» في السورتين. فالمقارنة بين ألفاظ هاتين الآيتين تكشف عن معان جليلة تكمن وراءها وبخاصة في استعمال الضمائر ولاشك أنّ هاتين الآيتين قد جاءتا في موقف واحد ولكن بألفاظ متفاوتة.

إنّه تعالى قد استعمل في الشعراء حرف الردع كلّا يعني ارتدع عما تظن يا موسى فلا يكون كما تظنّ ولن يقتلوك به فإني لا أسلّطهم عليك وعبّر - سبحانه - بكلا المفيدة للزجر، لزيادة إدخال الطمأنينة على قلب موسى عليه السلام .

فبداية الآية تشعر أنّ سياق الآية يختلف عما نجده في سورة طه حيث قال «لاتخافا» فهناك ردع وهنا نهي. والردع أشدّ من النهي. ثم كلّما نقترب من نهاية الآية نرى أنّه يكثر ما يدلّ على التاكيد لإزالة الخوف والقلق من وجود موسى الذي طلب من ربّه ما طلب لما أُمِر بالذهاب إلى فرعون الذي نعرف من قساوته ما عرّفنا القرآن. فنرى أنّه تعالى قد أرسلهما بآيات مختلفة لا بآية واحدة ثم قال آياتنا لا آياتي ثمّ قال إنّا لا إنّي ثم معكم لا معكما ثم مستمعون لا سامعون فيتّضح من هذا كلّه أنّ كل الكلمات قد جاءت منسجمة بعضها مع بعض لإفادة معنى واحد و هو إزالة الخوف عن موسى. فاستعمال ضمير « نا « الذي يدلّ على العظمة والفخامة يتلاءم وسائرَ المفردات المستعملة في الآية.

يحمل الطبرسي»نا»على نحن من دون الإشارة إلى سرّه ويعدّ هذا المقام أوكد من سورة طه حيث يقول:»إنّا مَعَكُم مُستَمِعُونَ» أي نحن نحفظكم ونحن سامعون ما يجري بينكم ومستمع هنا في موضع سامع لأنّ الاستماع طلب السمع بالإصغاء إليه وذلك لا يجوز عليه سبحانه وإنما أتى بهذه اللفظة لأنه أبلغ في الصفة وهو قوله»:إني معكما أسمع وأرى « وقال إنّا معكم لأنّه أجراهما مجرى الجماعة.[٣٦]

وابن عاشور يحمل الضمير المتكلم للجمع على الأفراد قائلا: وجملة «إنّا مَعَكُم مُستَمِعُون» مستأنفة بيانياً لأنّ أمرهما بالذهاب إلى فرعون يثير في النفس أن يتعامى فرعون عن الآيات ولا يَرعوي عند رؤيتها عن إلحاق أذى بهما، فأجيب بأن الله معهما ومستمع لكلامهما وما يجيب فرعونُ به.وهذا كناية عن عدم إهمال تأييدهما وكفّ فرعون عن أذاهما. فـ»مستمعون « أشدّ مبالغة من «سامعون» لأنّ أصل الاستماع أنّه تكلّف السماع والتكلف كناية عن الاعتناء، فأريدَ هنا علم خاص بما يجري بينهما وبين فرعون وهو العلم الذي توافقه العناية واللطف. والجمع بين قوله: «بآياتنا» وقوله: «إنّا مَعَكُم مُستَمِعُون» تأكيد للطمأنة ورباطة لجأشهما.[٣٧]

فنشاهد أنّ كلّ ما جاء في الآية من صيغ الجمع قد جاء للتوكيد لإزالة الخوف والقلق عن موسى ومن معه. فما من أحد أن يتمكن من الغلبة على ما أراد

الله.« فأية قوة؟ وأي سلطان؟ وأي حماية ورعاية وأمان؟ والله معهما ومع كل إنسان في كل لحظة وفي كل مكان. « ولكن الصحبة المقصودة هنا هي صحبة النصر والتأييد. فهو يرسمها في صورة الاستماع، الذي هو أشد درجات الحضور والانتباه. وهذا كناية عن دقة الرعاية وحضور المعونة. وذلك على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير» [٣٨] .

في حين أنّ البعض عدّ «إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ» استعارة تمثيلية مثّل سبحانه حاله بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجري بينهم ليمدّ أولياءه ويظهرهم على أعدائهم مبالغة في الوعد بالإعانة. فجوّز أن يكون « إِنَّا مَعَكُمْ « فقط تمثيلاً لحاله عزّ وجلّ في نصره وإمداده بحال من ذكر.... زعم بعضهم أن المعية والاستماع على حقيقتهما ولا تمثيل، والمراد أن ملائكتنا معكم مستمعون وهو مما لا ينبغي أن يستمع، ولا بدّ في الكلام على هذا التقدير من إرادة الإعانة والنصرة وإلا فبمجرد معية الملائكة عليهم السلام واستماعهم لا يطيب قلب موسى عليه السلام . [٣٩]

ومن هنا يتّضح لنا سرّ استعمال ضمير الجمع بدل التثنية في «معكم» فإنّه تعالى لمّا استعمل ضمير الجمع لنفسه بسبب عظمته فشرّف موسى وهارون وعظّمهما وعامل معهما معاملة الجمع في الخطاب. وفيه من العناية بشأنهما، والرعاية لهما، والتأييد لأمرهما.

ولكن في سورة طه إنّه تعالى قد استعمل ضمير المتكلم للإفراد في أكثر الآيات إلّا في مواضع قد أراد اظهار العظمة، منها:

« فقوله: «ولقد منّنا عليك مرة أُخرى» امتنان بما صنعه به أول عمره وقد تغيّر السياق بالنسبة إلى الآيات السابقة من التكلم وحده إلى التكلم بالغير لأنّ المقام مقام إظهار العظمة وهو ينبئ عن ظهور قدرته التامة بتخييب سعي فرعون الطاغية وإبطال كيده لإخماد نور الله وردّ مكره إليه وتربية عدوه في حجره، وأما موقف نداء موسى وتكليمه إذ قال:» يا موسى إني أنا ربك « إلخ فسياق التكلم وحده أنسب له» [٤٠].

ففي طه إنّ استعمال ضمير المتكلم للإفراد يتلاءم وسائرَ مفردات الآية حيث أنّه تعالى قد عدل عن الجمع إلى التثنية في «معكما» وعن «مستمعون» إلى « أسمع وأرى». فنجد أنّ استعمال ضمير « الياء » يتناسب مع هذه الكلمات دون «نا».

وأخيراً نشاهد استعمال ضمير المتكلم للافراد عند الخطاب إلى بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّـهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [٤١]

فنلاحظ أنّه تعالى قد كرّر لفظ «الله» لأنه العلم المحتوي على معاني جميع الأسماء، ثلاث مرّات خلافا لسورة طه وبخاصة بعد الفعل «قال» وأظهر الاسم الجليل هنا لتربية المهابة وتفخيم الميثاق وتهويل الخطب في

نقضه مع ما فيه من رعاية حق الاستئناف المستدعي للانقطاع عما قبله، والالتفات في قوله تعالى: ﴿ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً ﴾ قد جاء جرياً على سنن الكبرياء والعظماء. فإنّه تعالى قد جمع بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب لما صدر عن بني اسرائيل فهم المحتاجون إلى ما ذكر منهما وينبئ عنه الالتفات مع ما فيه من تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد « إِنِّي مَعَكُمْ » أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك [٤٢].

البروز والغياب ووجه الغياب والتكلم:

يدلّنا التدقيق في سرّ الإلتفات من التكلّم إلى الغيبة على دليل آخر في استعمال ضمير التكلّم وهو مسألة البروز.ففي آيات سورة الانبياء:﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(٣٠)وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ(٣١)وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ(٣٢)وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٣٣)﴾ إنّه تعالى استعمل الفعل «جعل» أربع مرات بصيغة المتكلّم مع الغير ولكنّه عدل من التكلّم إلى الغيبة عندما استعمل الفعل «خلق».

يعتقد بعض الدارسين أنّ العدول عن فعل الجعل إلى فعل الخلق في هذه الآيات مع الاختلاف الذي نشاهده في معنى فعلي «جعل وخلق»، يرجع إلى المخالفة بين اللفت إلى الشكل المحسوس الذي يبديه الحس المستبصر في الآيتين الأوليين واللفت إلى ما يكمن خلف هذا الشكل من حكم وأسرار في الآية الرابعة. وبناءً على ذلك نستطيع القول إنّ نكتة العدول عن ضمير المتكلّم في «جعلنا» إلى ضمير الغيبة في «خلق» هي ملاءمة طريق التكلم (وهو قرين الحضور والمشاهدة) لحسّية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين وملاءمة طريق الغيبة (وهو قرين التواري والخفاء) لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة[٤٣].

فنرى أنّ عنصر الغياب والظهور يؤدّي دوراً خاصاً في استعمال هذه الضمائر بحسب ما يتطّلبه سياق كلّ آية، إذ يعتقد حسن طبل أنّ ارتداد المخالفة بين ضميري التكلّم والغيبة فيها إلى المخالفة بين المشاهد المحسوس والخفي غير المحسوس يقدّم تفسيراً يكاد يكون مطّرداً للعدول عن كل منهما إلى الآخر في غير هذه المواطن [٤٤].

وجود الوسائط وعدمها ووجه إفراد الضمير وجمعه:

يحمل ضمير المتكلم للجمع أكثر الأحيان على الله تبارك وتعالى من دون أي مشاركة ولكن هنا بعض الأفعال التي تقبل وجود الوسائط فيحمل ضمير الجمع على الله وملائكته من دون أن يؤدّي ذلك الحمل إلى الشرك رغم أنّ بعض الباحثين قد حذّر من «أنّ الادّعاء أنّ الضمير «نا» هو مشترك بين الله والملائكة يؤدي في النهاية إلى تقديس الملائكة وربّما الإشراك بها في النهاية ولو على مستوى مشاعر الإنسان الداخلية وهذا منافٍ لمحكم القرآن. لذلك لو حاولنا تعريف ضمير الجمع «نا» بأنه لله والملائكة في نفس الوقت لزم أن نخالف كثيراً من

معاني وأسس وآيات القران المحكمة التي تشعرنا أنّ الخضوع والرهبة والخشية والخشوع والرغبة والخوف هي لله تعالى خالصة، وللزم أن نخالف الكثير من مشاعرنا وأحاسيسنا الإيمانية الداخلية بالله التي يؤمن بها لمئات السنين ملايين الناس المسلمين المؤمنين مفكرين وغير مفكرين.[٤٥] ولكن جمع غفير من الباحثين والمفسّرين قد اتخذوا الوسائط دليلاً على استعمال ضمير المتكلم للجمع.

يقول الزركشي حول آية: ﴿ وَاللَّـهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾[٤٦] إنّ هناك فرقاً بين فعل الإرسال وفعلَي السوق والإحياء. وهو أنّ الفعل الأوّل لم يذكر له سببا أمّا الفعلان الآخران فقد ذكرت أسبابهما في غير هذه الآية من اخضرار الأرض وإخراج الثمرات وقد جرى البيان القرآني على الإخبار عن مثل هذين الفعلين بنون التعظيم الدالّة على أنّ له جنداً وخلقاً قدسخّرهم في ذلك. وكذلك قوله تعالى في آدم: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٤٧] وفي عيسى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[٤٨] و﴿...فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ...﴾[٤٩].

يعتقد الطبرسي فيما يتعلق بخلق آدم (ع) أنّه سبحانه أضاف الروح إلى نفسه تشريفاً له. فهو قد تولّى فعله من غير سبب وواسطة كالولادة المؤدّية إلى ذلك. فإنّ الله شرّف آدم وكرّمه بهذه الحالة [٥٠].

أمّا ما يخصّ عيسى فقد اتّفق أكثر المفسرين على أنّ المراد من الروح هو جبرئيل. فيقول ابن كثير في تفسير آية سورة التحريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ أي بواسطة الملك، وهو جبرئيل فإنّ الله بعثه اليها فتمثّل لها في صورة بشر سويّ وأمره الله أن ينفخ بفيه في جيب درعها [٥١]. وإنّ ما قاله الآلوسي يؤيد وجود هذه الواسطة إذ يقول: «... النافخ رسوله تعالى وهو جبرئيل عليه السلام فالإسناد مجازي وقيل الكلام على حذف مضاف أي فنفخ رسولنا» [٥٢]. وشاهدنا أنّ هناك كان الخلق بلاواسطة فاستعمل ضمير « الياء ». ولكن هنا يكون الخلق بالوسائط فاستعمل ضمير «نا».

وهناك آيات أخرى حول خلق الإنسان، منها: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾[٥٣] و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [٥٤].

قد أسند فعل الخلق إلى الغائب مرّتين في سورة الرحمن وهي إعلان عام في ساحة الوجود الكبير، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة، و« رنّة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله، وفي إيقاع فواصلها... تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى، وامتداد التصويت إلى بعيد؛ كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والانتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار... الرحمن... كلمة واحدة. مبتدأ مفرداً.. الرحمن كلمة في معناها الرحمة، وفي رنّتها الإعلان »[٥٥]. وفي سورة الحجر قد أسند فعل الخلق مرّتين الى ضمير «نا» ومرّة عبّر عنه بصيغة المتكلم للإفراد.

فهناك التفات. إنّ استعمال ضمير «نا» في «خلقنا» و«خلقناه» من قبيل تكلّم العظماء عنهم ومن خدمهم وأعوانهم تعظيماً أي بأخذه تعالى ملائكته الكرام معه في الأمر وهذه العناية مما يستقيم في مثل المقام الذي يخاطب فيه الملائكة في إخبارهم بإرادته خلق آدم عليه السلام وأمرهم بالسجود له إذا سوّاه ونفخ فيه من روحه [٥٦].

فكلام العلامة يفوح بوجود الوسائط في خلق الإنسان لمّا قال «بأخذه تعالى ملائكته الكرام معه في الأمر» ثمّ يبين وجه هذا الاستحقاق لمّا أخبرهم الله بما أراد. فلمّا قصد هذا الإخبار استعمل ضمير المتكلم للإفراد لأنّه خطاب منه إلى الملائكة.

فمضى أنّ استعمال ضمير المتكلم للإفراد دليل على عدم وجود الوسائط في خلق آدم عليه السلام.

يمكننا أن نستدلّ في سرّ هذا الاستعمال بمعنى آخر وهو سرعة الامتثال فيما سيأمرهم الله من سجود المأمورين لآدم. فأكّد على « إني خالق » ليتنبهوا إلى الخالق وأوامره. وقال على وجه التوبيخ: ﴿... مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ...﴾ [٥٧].

دور السياق في استعمال الضمير:

إنّ للسياق دوراً مهماً في استعمال الضمائر وبخاصة في الأفعال؛ لأنّ سياق الآيات والسور قد اقتضت أن تأتي الضمائر على شكل خاص.

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٨] قد أسند التعذيب إلى ضمير المتكلّم للإفراد ولكن أسند توفية الأجور إلى الغائب ولم يقل: «فأوفّيهم أجورهم» فيكون الكلام على نسق واحد.

إنّ الآية الأولى قد جاءت في سياق كلام الله سبحانه عن نفسه. فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [٥٩]

فناسب إسناد التعذيب إلى نفسه جرياً مع سياق الحديث عن النفس. أمّا الثانية فهي في مقام الإلتفات إلى الغائب وذلك ليكون مدخلاً إلى قوله تعالى: « والله لايحب الظالمين » فإنّه لو لم يلتفت لقال: « فأوّفيهم أجورهم وأنا لا أحبّ الظالمين». ولم يرد فعل الحبّ من الله في القرآن إثباتاً أو نفياً مسنداً إلى ضمير المتكلّم...فالمناسب هو الالتفات وليس الاستمرار بالحديث عن النفس [٦٠].

الخطاب في الآيات السابقة إلى عيسى عليه السلام لمّا أحس الكفر من قومه وشعر بمكرهم فنرى أنّ الله قد مكر جرّاء مكرهم وبعث الإطمئنان في قلب عيسى لأنّه تعالى يعصمه من مكرهم فقال: ﴿يٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

فنرى أنّ سرّ استعمال ضمير «الياء» من دون «نا» يصبّ في مجرى بعث الاطمئنان واليقين في

قلب عيسى أمام عواقب مكرهم. فإنّه تعالى من أجل ذلك غير ضمير الغائبين، فقال أيضا «إلي مرجعكم» لا «مرجعهم» مع أن ذكرهم قد سبق. « فلو جاء على نمط السابق لكان التركيب: « ثم إلي مرجعهم « ولكنّه التفت على سبيل الخطاب للجميع، ليكون الإخبار أبلغ في التهديد، وأشد زجراً لمن يزدجر. فذكر لفظة:»إلي»، ولفظة:»فأحكم»، بضمير المتكلم، ليعلم أن الحاكم هناك من لاتخفى عليه خافية »[٦١].

يتّضح مما سبق أنّ ذكر فعل التعذيب مسندا إلى ضمير المتكلم للإفراد قد جاء للتأكيد على شدّة هذا العذاب وعدم الشك في تحقيق ذلك إذ أنّ الله نفسه قد تولّى هذه المهمة فنرى أنّه قد جاء بالمؤكّدات المختلفة لتحقيق الغرض. فهناك معان أخرى كما شاهدنا في سر استعمال ضمير المتكلم إلى جانب السياق.

وهناك نكتة لطيفة فيما قال أبو حيان وهو أنّ سرّ استعمال ضمير المتكلم للجمع في بعض القراءات لم يكمن في عظمة الله وفخامته فحسب بل إنّه جاء للدلالة على عظمة المؤمن وشرافة أعماله. فعلى أساس ذلك نرى أنّه تعالى لمّا انتهى من ذكر قصة عيسى خاطب نبيّنا (ص) باستعماله ضمير المتكم للجمع الذي يدلّ على العظمة والفخامة قائلاً : ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)﴾ فيعدل عن الغيبة إلى المتكلم للجمع. فهنا يتناسب سرّ استعمال ضمير «نا» مع سرّ استعمال اسم الإشارة للبعيدة وما فيه من الإشارة إلى عظم شأن المشار إليه وبعد منزلته في الشرف.

وفي توصيف ذاته تعالى بالمغفرة والرحمة قال «أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » ولكن في التعذيب لم يقل سبحانه: «إني أنا المعذب المؤلم». فهذا إن دلّ على شيء يدلّ على سعة رحمته وسبقها على العذاب كما نشاهد ذلك في تقديم ذكر المغفرة على العذاب.

ومن الآيات الأخرى التي للسياق دور مهم في استعمال الضمائر فيها، الآيات الآتية: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦٢] و﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[٦٣] و﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[٦٤]

إنّ الآيات الثلاث موضوعها واحد وهو قصّة آدم عليه السلام وأمر الله له بالهبوط من الجنّة في حين استعمل فعل « قلنا » في البقرة وفعل « قال » في غيرها.

يتبين سرّ استعمال فعل الغائب والمتكلم مع الغير في قول أحد الباحثين حول آيتي: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٦٥] و﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٦٦]

إذابتدأت آية البقرة بقوله سبحانه «وَقُلْنَا يَا آدَمُ » ولكن الاعراف قدابتدأت بقوله « وَيَا آدَمُ ». إنّ آية البقرة جاءت في سياق إخبار الرسول (ص)

وإعلامه ببيان فضل آدم عليه السلام، وجعله خليفةً في الأرض وتعليم الله له الأسماء كلّها وأمر الله الملائكة بالسجود له، واستكبر إبليس عن ذلك، ففي هذا السياق جاء نداء آدم عليه السلام مسبوقاً بإسناد القول إلى الله سبحانه وهذا فيه تكريم لآدم عليه السلام موافق لموضوع الآيات كلّها.

وسبب ثانٍ متصّل بالآية التي قبلها إذ بدأت بقوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)﴾فناسب أن يأتي ما بعدها منسجماً معها في البدء مثلها إذ هي معطوفة عليها.

أمّا آية الأعراف فقدجاءت في سياق يعرض ماجرى من حوارٍ بعد أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم واستكبر إبليس ولم يسجد.

ونلاحظ أنّه بعد أن أمر الله سبحانه إبليس بالخروج مذموماً مدحوراً نادى الله - عزّ وجلّ - آدم عليه السلام وأمره بالسكنى ويتحقّق من هذا الرأي تكريم آدم عليه السلام وإهانة ابليس اللعين ولو أعدنا النظر في سياق آية الأعراف لأدركنا أنّه لامجال لوجود كلمة «قلنا» كما هي في البقرة، فالمقام - هنا- غير المقام هناك [٦٧].

ونجد في البقرة التفاتاً إذ كان ما قبل هذه الآية قد أخبر عن الله بصورة الغائب:﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ثم انتقل إلى ضمير المتكلم، وأتى بـ «نا» الذي يدل على التعظيم وعلوّ القدرة وتنزيله منزلة الجمع، لتعدد صفاته الحميدة.« وحكمة هذا الالتفات وكونه بنون المعظم نفسه أنه صدر منه الأمر للملائكة بالسجود، ووجب عليهم الامتثال، فناسب أن يكون الأمر في غاية من التعظيم، لأنّه متى كان كذلك كان أدعى لامتثال المأمور فعل ما أمر به من غير بطء ولا تأول لشغل خاطره بورود ما صدر من المعظم.

وقد جاء في القرآن نظائر لهذا، منها: «وَقُلْنَا يا آدمُ اسْكُنْ» [٦٨] ،»وَقُلْنَا اهبِطُوا» [٦٩] ،»قُلنا يا نارُ كُوني بَرداً « [٧٠]،»وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض» [٧١] ،»وقُلنَا لهُم ادخُلُوا البَابَ» [٧٢] ،»وقُلنَا لهُم لاتَعدُوا «[٧٣].

فأنت ترى هذا الأمر وهذا النهي كيف تقدّمهما الفعل المسند إلى المتكلم المعظم نفسه، لأن الآمر اقتضى الاستعلاء على المأمور، فظهر للمأمور بصفة العظمة، ولا أعظم من الله تعالى، والمأمورون بالسجود» [٧٤].

مقام الوعد والوعيد ووجه إفراد الضمير وجمعه:

نجد في القرآن بعض المواضع من الترغيب والترهيب قد استعمل ضمير المتكلم بنوعيه فإذا حملنا ضمير الجمع في هذه الآيات كـ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [٧٥] على الفخامة والتعظيم وبالتالى سعة البشارة وشدة الإنذار فماذا نفعل بالنسبة إلى الإفراد؟

تبين لنا مما سبق في آل عمران أنّه تعالى قد تكفّل

نفسه الحكم فيما بينهم وتعذيبهم عن طريق استعمال ضمير المتكلم وحده على وجه التهديد والتأكيد. وهذا ما يتجلّى أيضاً في آية: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٧٦]

فلمّا ادّعى الشيطان أنه يبذل ما يملك من الجهد لإغواء الإنسان، نرى سبحانه وتعالى قد استعمل ضمير المتكلم للإفراد على وجه التاكيد والتهديد. فكما دلّ ضمير الياء على الإيناس والتلطّف في موضع الرحمة والمغفرة فانّه يدلّ على التهديد في موضع النقمة والعذاب. وهذا ما نلاحظه في آية ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[٧٧] التي تعني «أنا أغنيك في الانتقام عن كل منتقم. وهذا إذا اعتبرنا وحيداً حالاً من ضمير الياء في « ذرني ». فإذا اعتبرنا من ضمير التاء في «خلقتُ» أي خلقتُه وحدي لم يشركني في خلقه أحد فأنا أهلكه لاأحتاج إلى ناصرٍ في إهلاكه» [٧٨]. فجاء وحيداً بياناً لما يفيد ضمير الإفراد من شدة هذا الانتقام وحتميته.إنّ هذا الاختصاص لاينحصر في الوعيد بل شمل الوعد أيضاً. فنرى أنّ الله قد استعمل ضمير المتكلم للإفراد في مقام الترغيب والترهيب. ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأليمَ﴾[٧٩] فنرى أنّ ضمير المتكلم للإفراد قد يؤدّي دوره في بيان سعة هذا الغفران وشدّة هذا الانتقام والعذاب كما شاهدنا ذلك عند ضمير المتكلم للجمع وقد يكون الضمير للإفراد أكثر دلالة من الجمع بما فيه من إيناس في موضع الرحمة من جهة وشدة وحتمية في موضع النقمة وذلك نتيجة عدم وجود الوسائط.

زيادة التفضل والإحسان ووجه جمع الضمير:

إنّ ضمير الجمع يدلّ على الكثرة ولذلك يتناسب والسياق دلالة عند بيان كثرة النعم. كما نشعر به في الآيات الآتية:

﴿... هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٨٠]

و﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[٨١] نرى أنه تعالى قد أسند فعلَي الإنزال والإنبات إلى ضمير الغيبة في النحل في حين تمّ إسنادهما إلى ضمير المتكلّم بصيغة الجمع في عبس. وهذا ما يتّفق مع سياق الآيات في كلّ سورة. فإنّه تعالى لمّا زاد في الكمية وذكر أنواع المنتوجات من حبٍ وعنبٍ وقضبٍ وزيتونٍ ونخلٍ والحدائق والفواكه والمراعي في عبس، فجاء بضمير الجمع «للتعظيم وهذا يقتضي الزيادة في التفضّل على الإنسان فيها» [٨٢]. فإنّ الجمع يدلّ على الكثرة والكثرة تدلّ على أنواع النعم التي أنعم الله على الإنسان في آيات عبس.

من جهة أخرى نرى أنّه لمّا قصد ذكر أنواع المنتوجات - وهي أكثر عدداً وتفصيلاً مما ذكر في النحل- غيّر الإنزال إلى الصبّ الذي يدلّ على الماء الأكثر. فنلاحظ أنّ استعمال كلٍّ من هذه الضمائر يتناسب مع أجواء الآية والمعاني التي تحتوي عليها.

علاقة الضمير بالكلمات المجاورة عدداً:

قد جاء في بعض الآيات المتشابهة ضمير المتكلم بنوعيه إذ يمكننا أن نجد علاقة بين إتيان الضمير بوجه خاص والكلمات المجاورة له. منها:﴿ فَأَوْحَيْنَا إليه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[٨٣] و﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[٨٤] و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[٨٥] و﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[٨٦] و﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي اليمِّ فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[٨٧]

إنّ الآيات الثلاث قيلت في سفينة نوح (ع) والرابعة خطاب للنبي (ص) والخامسة حكاية عن موسى (ع) وخطاب له. فكما نلاحظ أنّه تعالى قد أجمع العين مع ضمير الجمع ووحّدها مع ضمير الإفراد. فلا شك أنّ بينهما علاقة لفظا ومعنى.

فإنّه «لمّا وحّد الضمير هناك وهو ياء المتكلم وحده وحّد العين ولما ذكر ههنا ضمير الجمع في قوله « بِأَعْيُنِنَا » وهو النون جمع العين، وقال: « بِأَعْيُنِنَا » هذا من حيث اللفظ، وأما من حيث المعنى فلأن الحفظ ههنا أتمّ لأنّ الصبر مطية الرحمة بالنبي صلى الله عليه واله وسلّم حيث اجتمع له الناس وجمعوا له مكايد وتشاوروا في أمره، وكذلك أمره بالفلك وأمره بالاتخاذ عند عدم الماء وحفظه من الغرق مع كون كل البقاع مغمورة تحت الماء تحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخلق فقال: « بِأَعْيُنِنَا» [٨٨] . فوجه إفراد الضمير وكلمة العين ووجه جمعهما يرتبطان بإفراد فعل أو أفعال كثيرة. يعني أنّه أفردهما لإفراد الفعل وهو كلاءة موسى (ع) وجمعهما في سائر الآيات لأن فيها أفعالاً كثيرة كل منها يحتاج إلى حراسة منه. يقول ابن عاشور في تفسير سورة الطور «ولك أن تجعل الجمع باعتبار تعدّد متعلَّقات الملاحظة فملاحظةٌ للذبّ عنه، وملاحظة لتوجيه الثواب ورفع الدرجة، وملاحظة لجزاء أعدائه بما يستحقونه، وملاحظة لنصره عليهم بعموم الإيمان به، وهذا الجمع على نحو قوله تعالى في قصة نوح:﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا...﴾[٨٩] لأنّ عناية الله بأهل السفينة تتعلّق بإجرائها وتجنيب الغرق عنها وسلامة ركابها واختيار الوقت لإرسائها وسلامة الركاب في هبوطهم، وذلك خلاف قوله في قصة موسى:«ولتصنع على عيني» فإنه تعلق واحد بمشي أخته إلى آل فرعون وقولها: ﴿هل أدلّكم على من يكفله ﴾(طه/٤٠)[٩٠] وهناك سرّ لطيف في حكمة إفراد الضمير في قصة موسى وجمعه في الباقي يتنبّه إليه الزركشي وهو إظهار الاختصاص الذي خصّ به موسى في قوله:«واصطنعتُك لنفسي» [٩١] فاقتضي الاختصاصُ الاختصاصَ الآخر في قوله (ولتصنع على عيني)[٩٢] بخلاف غيرها من الآيات فليس فيه من الاختصاص ما في صنع موسى على عينه سبحانه [٩٣].

النتيجة:

١- إن الله تعالى قد استعمل ضمير الإفراد في مقام التوحيد وما يرتبط به دفعا لما يوهمه ضمير الجمع من التعدد. غير أنه استعمل ضمير التكلم بنوعيه مع كلمة العبد والعباد لبيان الاختصاص والإيناس والتلطف في الإفراد والتعظيم وإبراز الفخامة في الجمع.

٢- لما كان ضمير الجمع يدلّ على التعدد فإنّه جاء في بعض المواضع لبيان كثرة التفضل وزيادة الإحسان.

٣- إنّ استعمال ضمير الجمع بالنسبة إلى الله لم يأتِ لبيان عظمته فحسب بل جاء للإشارة إلى عظمة وفخامة ما يذكره الآية كعظمة الأنبياء وعباده الصالحين و....

٤- إنّ ضمير الجمع يدلّ في بعض المواقع على وجود الوسائط كما أن الإفراد يدلّ على عدم وجودها.

٥- إنّ الضميرين يستعملان في الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، لكن يبدو أنّ ضمير المتكلم للإفراد يؤدي دوراً أبرز في بيان السعة في موضع الوعد والشدة في موضع الوعيد لأنّه سبحانه وتعالى قد تكفّل ذلك نفسه وذلك ما يتبين في موضع سرعة الامتثال وبخاصة في قصة خلق آدم (ع) إزالة الخوف في قصة موسى (ع).

٦- إنّ بين وجه إفراد الضمير وجمعه وكلماته المجاورة ومعنى الآية توجد علاقة وثيقة، ويطلب سياق الآية ومقامها وأجواؤها دورا بارزا في استعمال نوع الضمير.

الهوامش

١- علي بن عتيق الحربي، إفتراءات المنصّرين على القرآن الكريم، صص ١٩-١٨.

٢- المؤمنون/٩٩.

٣- أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص٢٩٣.

٤- أبو الحسين أحمد ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، صص١٦٣-١٦٢.

٥- المؤمنون/ ٩٩.

٦- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي،روح المعاني في تفسيرالقرآن العظيم والسبع المثاني،ج٩، ص٢٦٢.

٧- محمدحسين الطباطبائي،الميزان في تفسيرالقرآن، ج١٥، ص ٦٧.

٨- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج ٩، ص٢٦٢.

٩- غافر/٦٠.

١٠- يونس/١٢.

١١- الفتح/١.

١٢- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،ج ١٣، ص٢٣٩.

١٣ -محمود بن عمر الزمخشري،الكشاف، ج٤، ص٣٣١.

١٤ - محمدالطاهر ابن عاشور،التحرير والتنوير،ج ٢٦، ص١٢٣.

١٥ - شهاب الدين السيد محمود الآلوسي،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ج١٣، ص ٢٤٥.

١٦ - الحجر/٩.

١٧ - الحجر/ ٤٢.

١٨ - شهاب الدين السيد محمود الآلوسي،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،ج٨، ص ١٠٧.

١٩ - الأنبياء/ ٩٣-٩٢.

٢٠- ابن السائح الأخضر، سيميائية الضمير» أنا «في الدلالات وبناء التأويل ، bensayahlakhdar. ibda3.org/t14-topic .www

٢١- الزمر/٥٣.

٢٢- محمد حسين الطباطبائي،الميزان في التفسير القرآن، ج١٧، ص٢٧٩.

٢٣- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،ج١، ص١٩٥.
٢٤- الإسراء/١.
٢٥- طه/١٤.
٢٦- القصص/٣٠.
٢٧- النمل/ ٩-٨.
٢٨- فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص١٠٦.
٢٩- فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، ج١، ص ٥٦.
٣٠- ابراهيم عبد الحميد التلب، الضمير المنفصل في النظم القرآني، مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، صص٢٢٤-٢٢٣.
٣١- فاضل صالح السامرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص ١٠٩.
٣٢- المصدر السابق، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، ص ١٠٨.
٣٣- الأنفال/١٢.
٣٤- طه/ ٤٧-٤٧.
٣٥- الشعراء/ ١٧-١٢.
٣٦- حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، صص٩٧-٩٦.
٣٧- الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٧، ص٣٢٤.
٣٨-محمد الطاهر ابن عاشور ،التحرير والتنوير، ج١٩، ص١٢٣.
٣٩- سيد قطب،في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٥٩٠.
٤٠- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٠، ص٦٧.
٤١- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤،ص١٥٠.
٤٢- المائدة/١٢.
٤٣- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي،روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٣، ص٢٦٠.
٤٤- حسن طبل،أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص١١١.
٤٥- المصدر السابق،أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص١١٢.
٤٦- عبد الله عبد الرحمن العراقي،سيميائية الضمير» أنا «في الدلالات وبناء التأويل .www.ahlalhdeeth com/vb/showthread.php?t=231668
٤٧- فاطر/٩.

٤٨- بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن،ج٣،ص٣٢٠.

٤٩- الحجر ٢٩و ص ٧٢.

٥٠- الأنبياء/ ٩١.

٥١- التحريم/ ١٢.

٥٢- الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن،ج٨، ص٣٧٨.

٥٣- اسماعيل بن عمر بن كثير،تفسير القرآن العظيم،ج٨،ص١٩٤.

٥٤- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،ج١٤،ص٣٥٩.

٥٥- الرحمن/١٥-١٤.

٥٦- الحجر/ ٢٨-٢٦.

٥٧- سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٤٤٥.

٥٨- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢، ص١٥٤.

٥٩- ص/٧٥.

٦٠- آل عمران/ ٥٧-٥٦.

٦١- آل عمران/ ٥٦-٥٥.

٦٢- فاضل صالح السامرائي، أسئلة بيانية في القرآن الكريم،ص ٣٣.

٦٣- أبو حيان الأندلسي،البحر المحيط،ج٣، ص١٨٠.

٦٤- البقرة/ ٣٨.

٦٥- طه/ ١٢٤-١٢٣.

٦٦- الأعراف/ ٢٤.

٦٧- البقرة/٣٥.

٦٨- الأعراف/١٩.

٦٩- محمد علي الصامل، من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم ، ص١٤٧-١٤٥.

٧٠- البقرة/ ٣٥.

٧١- البقرة/ ٣٦.

٧٢- الأنبياء/ ٦٩.

٧٣- الإسراء/ ١٠٤.

٧٤- النساء/ ١٥٤.

٧٥- النساء/ ١٥٤.

٧٦- أبوحيان الأندلسي، البحر المحيط، ج١، ص٢٤٦.

٧٧- التوبة/٦٦.

٧٨- ص/٨٥-٨٤.

٧٩- المدثر/ ١١.

٨٠- شهاب الدين السيد محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج١٥، ص١٣٦.

٨١- الحجر/ ٥٠-٤٩.

٨٢- النحل/ ١١-١٠.

٨٣- عبس/ ٣١-٢٤.

٨٤- فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني،ص١٠٠.

٨٥- المؤمنون/٢٧.

٨٦- هود/٣٧.

٨٧- القمر/١٤.

٨٨- الطور/ ٤٨.

٨٩- طه/٣٩.

٩٠- محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير ،ج٢٨، ص٢٧٥.

٩١- القمر/ ١٤-١٣.

٩٢-محمدالطاهر ابن عاشور،التحرير و التنوير، ج٢٧، ص ٩٣-٩٢.

٩٣- طه/٤١.

٩٤- طه/٣٩.

٩٥- بدر الدين محمد الزركشي، البرهان في علوم القرآن،ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١- الآلوسي، شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية،الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ق.

٢- الأندلسي، أبوحيان، البحر المحيط،د.ط، بيروت، دار الكفر، ١٤٢٠ق.

٣- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية،القاهرة، دار التراث، ١٩٧٣م.

٤- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق أحمد حسن بسج، الطبعة الأولى، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.

٥- ابن حنبل، احمد، الردّ على الجهمية والزنادقة، تحقيق شاهين صبري سلامة، الطبعة الأولى، الرياض، دار اثبات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

٦- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الطبعة الأولى، بيروت، موسسة التاريخ،٢٠٠٠م.

٧- ابن كثير، اسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، د.ط، بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ١٤١٩ق.

٨- التلب، إبراهيم عبد الحميد، الضمير المنفصل في النظم القرآني، مجلةكلية اللغة العربية بالقاهره، العدد الثامنعشر،١٤٢٠ق. صص٢٥٣-٢١٣.

٩-الحربي، على بن عتيق، إفتراءات المنصّرين على القرآن الكريم، د.ط، د.ت.

١٠- الرازي، محمد بن عمر، التفسير الكبير،الطبعة الثالثة، بيروت،دار إحياء التراث العربي،١٩٨١م.

١١- الزمخشري، محمودبن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧ق.

١٢- الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن،د.ط، القاهرة، دار التراث،د.ت.

١٣- السامرائي، فاضل صالح، معاني النحو، المجلد الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، شركة العاتكة لصناعة الكتاب، ٢٠٠٣م.

١٤-السامرائي، فاضل صالح، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، الطبعة الثانية،القاهرة، شركة العاتكة لصناعة الكتاب، ٢٠٠٦م.

١٥-السامرائي، فاضل صالح، أسئلة بيانية في القرآن الكريم ،د.ط، القاهرة، مكتبة التابعين، ٢٠٠٨م.

١٦-السامرائي، فاضل صالح،لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، الطبعة الثانية، دارعمّار، القاهرة، ٢٠٠٣م.

١٧-السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق فوّاز أحمد زمرلي، المجلد الأول، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢٠٠١م.

١٨-الصامل، محمد علي، من بلاغة المتشابه اللفظي في القرآن الكريم،الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، دارإشبيليا، ٢٠٠١م.

١٩- الطباطبائي، العلامّه السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الطبعة الخامسة، قم المقدسة،

منشورات جامعة المدرسين، ١٤١٧ق.
٢٠- طبل، حسن، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د.ط، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.
٢١- الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن،الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٩٥م.
٢٢- قطب، سيد، في ظلال القرآن،الطبعة السابعة عشرة، القاهرة،دار الشروق، ١٤١٢ق.
٢٣- القرطبي، محمد بن احمد،الجامع لاحكام القرآن،د.ط، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٨٥م.
٢٤- الكرماني، محمود بن حمزة، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق عبد القادر أحمد عطا،د.ط، دار الفضيلة، د.ت.
المواقع الإنترنتية:
٢٥- الأخضر، ابن السائح، ٢مارس٢٠١٠، « سيميائية الضمير» أنا «في الدلالات وبناء التأويل »، جامعة عمّار ثليجي ولاية الأغواط، الجزائر، ٣bensayahlakhdar.ibda-org/t١٤.topicwww.
٢٦- العراقي، عبدالله عبدالرحمن، ٢٠١٠، عائدية ضمائر الجمع في القران ولماذا استعمل الله تعالى ضمائر الجمع للاشاره إليه تعالى، www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=231668